اثر الثقافة والفلسفة
فى المجتمع المصرى

أصبح للفلسفة فى أمريكا معنى يخالف معناها التقليدى المعروف فى أوربا وفى العالم القديم كله . فنحن نفهم من الفلسفة أنها تأمل فى الخلق والخالق ، وتفسير لمعميات الكون ، ودرس للمذاهب القديمة والحديثة من عهد الإغريق الى العصر الحاضر . وموازنة بين مختلف النظريات أو محاولة للتوفيق بينها بالزيادة هنا والحذف هناك . والفيلسوف فى نظرنا هو الرجل المنصرف عن معترك الحياة ، الواضع نظارته على أرنبة أنفه ، الغارق فى أكداس الكتب يقلب صفحاتها و يستوعب محتوياتها ، فإذا رفع عينيه عنها فلكى يحتر أفلاطون وارسطو و يفكر فى ديكارت وسبينوزا .

ولكن التفكير فى أمريكا يتجه اتجاها آخر و ينحو نحوا جديدا .

من ذلك أن الأستاذ ديوى "Dewey" زعيم حركة التجديد فى الفلسفة الحديثة يرى أن الفلسفة وسيلة من وسائل الكفاح والنجاح فى الحياة ، شأنها فى ذلك كشأن جميع أنواع الثقافات ، وأن همها ينبغى أن ينصرف الى ترقية عيشة الإنسان والمجتمع الإنسانى كله . ولذلك يجب أن يكون هذا المجتمع أساس النقد والتجديد فى الفلسفة . ومن هنا نرى هذه الظاهرة الجديدة وهى أن الدراسات الفلسفية قد انتقلت من مخابئها فى مكتبات العلماء المترمتين الى الحياة العامة ، ونرى مثلا الحكومة الأمريكية تعين مستر ما كيفر "Mackiver" أستاذا للفلسفة فى كلية الزراعة فى تكساس .

فتأمل هذا الخبر الصغير فى مبناه ، الكبير فى معناه . هذه كلية تلقن الطلبة كيف يزرعون القطن ويعنون بالطماطم و يحلبون البقر ، ولكن الى جانب هذا يجب أن يتعلموا الفلسفة وأن يعرفوا أثرها فى حياتهم الزراعية المستقبلة ، ويجب أن ينيروا بصائرهم فى قيمة الحياة وأقيستها ، وأن يستعينوا بالفلسفة لكى يعينوا و يحددوا مطامعهم الفردية ومكانتهم الاجتماعية فى الأمة .

فالفلسفة لم تعد من الكماليات التى يتذوقها المتحذلقون أو المتخصصون . و إنما أخذت تتصل بالزراعة والصناعة فيجب أن يكون اتصالها وثيقا بالبيت والمصنع كما يجب على الشاب والفتاة أن يتساءل كلاهما فى بداية أى مشروع : هل هذا العمل يتفق والنظر الفلسفى الحسن ، أم لا يتفق ؟

اما النظر القديم — نظر التخصص — وهو الذى يقضى بأن يكون المزرع مزارعا فقط والفيلسوف فيلسوفا فقط ، فقد عدل عنه الأمريكيون لأنهم يرون أن الشخصية المثقفة هى الشخصية " الشاملة " المحيطة بالكثير من المعارف الإنسانية . وليس المقصود من هذا أن يكون الإنسان موسوعة كاملة ولكنهم يقصدون الى أنه يجب ألا تتغير المعارف الانسانية لكل من فروعها أفراد معينين ، هذا للفلسفة وذاك للكيمياء وآخر للأدب ، كأن هذه المعارف أمتعة مختلفة يحفظ كل منها على رف معين فى مخزن تجرى كبير بحيث لا يختلط أحدهما بالاخر .

وهنا ندرك معنى آخر للثقافة وهو أنها جزء من العدة للحياة الطيبة . وهى بهذا الاعتبار كفاح وجهاد للإصلاح والتجديد . فالمزارع يجب أن يدرس الفلسفة لا لكى يتحذلق بذكر أرسطوطاليس أو شوبنهاور ، ولكن لكى يهتدى بهديها فى حياته العيفية ولكى توحى الى نفسه الاطمئنان الذى يكسب حياته الاتزان ويرشدها الى المرساة التى تسكن اليها فى الزعازع والقلاقل .

وكذلك يجب علينا جميعا أن نكون مثقفين . ولكن لأية غاية ؟

للغاية نفسها التى نقصد منها الى الفلسفة كما هو المغزى من تعيين المستر ما كيفر أستاذا للفلسفة فى كلية الزراعة الحكومية فى تكساس . أى أننا يجب أن نعالج الفلسفة والثقافة باعتبار صلتهما بالحياة الحاضرة وأثرهما فى السعادة والصلاح الاجتماعى . ويجوز لنا أن نقول إن أوروبا قد سبقت أمريكا الى ادراك القيمة الاجتماعية لها . فقبل نحو مائة سنة كانت دراسة اللغتين الإغريقية واللاتينية القديمتين تكاد تعم جميع المدارس الثانوية . وذلك تراث قديم انتقل اليها من القرون الوسطى حين كانت الكتب تؤلف باللاتينية . ولكن عند ما استفاضت العلوم العصرية ووضح لصوقها الحميم بالمجتمع فى الصناعة والزراعة والتجارة والطب عرف الأوربيون — وخاصة أمم الشمال — قيمتها وجعلوا لهذه العلوم التفضيل على تيك اللغتين القديمتين . فإن المزارع أو الصانع أو التاجر ينتفع بالكيمياء أو المبادئ الطبية أو الطبيعيات أكثر مما ينتفع بالإغريقية القديمة . وقد يحتاج الطبيب الى أن يعرف سبعين أو ثمانين جذرا من الجذور اللغوية اللاتينية التى تتألف منها الحدود الطبية ولكنه ليس فى حاجة الى درس بوتارك وتاكيتوس لهذا الغرض . كما أن التاجر أو الصانع ليس فى حاجة الى درس هذه الجذور بتاتا .

ولا يظن أحد أن الأمم الأوربية حين نزعت الى إدخال العلوم العصرية فى مدارسها قد قصدت الى حذف أو إبعاد هاتين اللغتين القديمتين من مناهج التعليم وإنما هى أدركت أن الحياة العصرية تحتاج الى ثقافة تتصل بالمجتمع الحاضر ، وأن وسائل أو مواد هذه الثقافة هى العلوم العصرية ، أما هاتان اللغتان فيجب أن تبقيا ولكن ليدرسهما المتخصصون لفقه اللغات .

وقد يتهمنى القارئ الى الاستنتاج بأننا قد تناقضنا فى هـذا الذى ذكرنا . فقد قلنا إن الفلسفة تدرس فى كليات الزراعة، ثم عدنا فقلنا إن أوربا قد جنحت إلى العلوم واستبدلت بها اللغات القديمة كأنها قطعت بين الثقافة القديمة وبين الرجل العصرى .

والحقيقـة أن لا تناقض . فإن جميع الأمم المتمدنة لا تنكر ضرورة الاختصاص وهى تنشئ الكراسى فى الجامعات لأنواع الدراسات القديمة والحديثة والتافه منها والخطير . ولكن كل هذا للاختصاص لا للتعميم . فان اللغـة الإغريقية القديمة لا تلتصق بالحياة الزراعية فى أمريكا . ولكن الفلسفة تلتصق بهذه الحياة . فيجب أن يعلم المزارعون الفلسفة ولا يتعلموا الإغريقية القديمة . ويجب أن يحيطوا بالطبيعيات والكيمائيات والبيولوجية والاجتماع ولكن ليس عليهم — إلا إذا أرادوا التخصص أو الهواية — أن يدرسوا الآداب الصينية أو حتى لغـة الانجلوسكسون التى كانت حية فى انجلترا حوالى سنة ١٠٠٠ للميلاد .

وخلاصة القول أن النظر الجديد إلى الفلسفة والثقافة يخالف النظر القـديم . فهما ليستا للتأمل والاستمتاع وتقليب الكتب وتعليق الهوامش فى رفاهية المقعد الوثير فى المكتبة الزاخرة بالمجلدات . وليست الفلسفة اجتراراً من الأقوال والنظريات أو كما يقول الانجليز : ليست هى الفرفرة الذهنية . إنما الفلسفة والثقافة هما ما يتصل بالحياة العصرية ويؤثر فيها بالصلاح والإصلاح . وإذا نحن تبعنا هـذا النظر فاننا سنجد أقيسة جديدة نقيس بها قيمة المعرف الإنسانية بين عقيمة ومفيدة وبين حسنة ومضرة . وعندئذ تعود الفلسفة والثقافة جهازين اجتماعيين للرقى والسعادة والحياة الطيبة . ثم تعودان من حيث هذا الاعتبار ضرورتين لكل فرد حتى لا يمكن لإنسان أن يعد نفسه متمدنا مالم يكن فيلسوفا مثقفا . وتخرج الفلسفة والثقافة عندئذ إلى السوق وإلى القهوة والنادى وتعودان حديث الزوجة مع الأولاد والمزارع مع العمال والمعلم مع التلاميذ .

ولكن ان نصل إلى هذه الحال إلا إذا اختزنا من الثقـافة والفلسفة للتعميم ما يتصل بالحياة العصرية ويبين لنا المغزى من هذا التطور السياسى أو ذاك الانقلاب الاجتماعى وسائر الشؤون التى تهم لها جمهرة الناس وتصطدم بها فى قراءتها للجريدة أو فى طموحها الروحى أو فى رقيها الاقتصادى . أما غير ذلك مما لا يتصل بحياتهم العصرية إلا اتصالا ضعيفا فيجب أن يكون له الاختصاصيون الذين ينقبون عن آثاره ويوضحون قيمته التاريخية .